-

تحوّلات النّقد السيكولوجي في المغرب العربي
- قراءة في جهود حسن المودن-د. سميرزياني. المركز الجامعي مغنية

مقدمة:

لقد استثمرت الدّراسات النّقدية المغاربية في مفاهيم التّحليل النّفسي الجديدة، حيث تمكّن جملة من النّقاد من القفز على النظرّيات الكلاسيكية القديمة، واختاروا لأنفسهم طريق التّحليل النّصي الّذي يجمع بين المعارف اللّسانية، وطرائق التّحليل النّفسي المختلفة، ومن هنا فقد شكّلت جهود حسن المودن، وفتحي بوخالفة، وأحمد حيدوش، تجارب رائدة ليس في المغرب العربي فقط، بل في البقاع العربيّة، ذلك أنّ عمليّة المثاقفة مع نقاد الغرب، ومواكبة التّطوّرات الحاصلة في ميدان علم النّفس، وتطبيقاتها على الأدب، جعلت هذه -على قلّتها- منسجمة مع ما تتطلّبه النّصوص السّردية من إدراك للاوعي المبطّن في بنائها ومضامينها، وهو ما يعكف عليه هذا البحث من خلال الإجابة عن الإشكاليتين الآتيتين: ما وجه التّحوّل في النّقد النّفسي المغاربي؟ وما تجلّيات ذلك عند النّقاد المغاربة وعلى رأسهم حسن المودن؟

ويتمثّل هدف هذا الموضوع في كونه يريد أن يقف عند التّغيّرات الّتي طرأت على الممارسة النّقدية النّفسية في المغرب العربي، من خلال نماذج تطبيقية للنّاقد المغربي حسن المودن.

واقتضت طبيعة الموضوع مقاربة وصفية تحليلية راصدة تطبيق القراءة السيكيولوجية في المغرب العربي.

1.النّقد النّفسي من السّياق إلى النّص:

ساهمت الدّراسات النّفسية الحداثية في تغيير النّظرة للعلاقة الّتي تجمع بين العناصر الأساس: فرويد، والتّحليل النّفسي، والأدب، وسمحت بفتح آفاق جديدة أمام فهم النّفسي والأدبي وما بينهما من علاقات، ومن هنا فقد اقترح على النّقاد المهتمين بهذه المقاربة ثلاث دراسات معاصرة[1]، القاسم المشترك بينها أنّها تحاول إعادة قراءة فرويد، بعيدا عن النّمطية في الطّرح، والتّقليدية في التّطبيق على النّصوص الأدبيّة، وتتمثّل هذه الدّراسات في:

1.1- التّحليل النّفسي والأدب: وهو كتاب للنّاقد الفرنسي "جان بيلمان، نويل" صدر سنة 1978م، وترجمه إلى العربية حسن المودن سنة 1997م، حاول من خلاله أن يجيب على تساؤل شغل الكثير من الدّارسين والباحثين وهو: هل هناك علاقة بين التّحليل النّفسي والأدب؟[2] كما تكمن أهميّته في أنّه أعاد فحص نظريّة فرويد، وركّز على العلاقة الّتي تجمع بين التّحليل النّفسي والأدب من "سيغموند فرويد" إلى "جاك لاكان" بطريقة تجمع بين التّاريخ والنّقد، وخلص في الأخير إلى تقديم منهج جديد في النّقد النّفسي سماه "التّحليل النّصّي" الّذي يسمح بالانتقال من الاهتمام بمؤلّف العمل الإبداعي إلى التّركيز على العمل الأدبي نفسه[3]، وهي دراسة استفزّت حسن المودن، وجعلته يحاول تجديد النّقد النّفسي العربي الغارق في نمطّية سبر أغوار المبدع، والبحث في تأثير الأدب على القارئ.

2.1- فرويد شاعر اللاشعور: وهي عبارة عن مقالة مركّزة جريئة لصاحبتها "ليديا فليم"، صدرت سنة 1998م، حاولت من خلالها أن تجيب على سؤال يبدو غريبا: هل يمكن اعتبار

---

[1]- ينظر، إبراهيم أولحيان، حسن المودن: القراءة والتّحليل النّفسي، قراءات، شهادات، حوارات، المطبعة والورّاقة الوطنيّة، مراكش، المغرب، الطبعة1، سنة 2013م، ص95.

[2]- ينظر، جان بيلمان- نويل، التّحليل النّفسي والأدب، ترجمة حسن المودن، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، مصر، د.ط، سنة 1997م.

[3]- ينظر، إبراهيم أولحيان، حسن المودن: القراءة والتّحليل النّفسي،، ص96-95.

فرويد شاعرا؟ لتجيب على أنّ فرويد لم يكن مجرّد طبيب أو عالم، بل إنّه أديب أو كاتب بالمعنى المعاصر[1]، وهذا ما يُدعّم جهود جاك دريدا الّذي انصبّ اهتمامه على فرويد، وعلاقته بمشهد الكتابة على الرّغم من أنّه لم يلق أدنى اهتمام.

3.1- هل يمكن تطبيق الأدب على التّحليل النّفسي؟: هو عنوان لدراسة صدرت سنة 2004م، للمحلّل النّفسي الفرنسي "بيير بيار"، وقد تميّزت بهذا العنوان الجريئ الّذي قلب الكثير من المسلّمات الخاصة بعلاقة الأدب بالتّحليل النّفسي[2]، فإذا كان المألوف أن يناقش المهتمون مسألة تطبيق التّحليل النّفسي على الأدب، فإنّ مؤلّف هذا الكتاب اقترح بالكثير من الجرأة قلب الأدوار وإعادة بناء العلاقات، والسّخرية من الأذهان الّتي تستكين إلى مسلّماتها[3].

لقد مكّنت هذه الدّراسات المعاصرة من التعمّق في العديد من الإشكالات الّتي حامت حول التّحليل النّفسي وأدواته، وعلاقاته بالإبداع، وشجّعت الدّارسين على ضرورة إعادة قراءة نظريّات المؤسّسين لمدرسة التّحليل النّفسي بما يخدم تلك النّصوص السّردية الجديدة الغارقة في تصوير خلجات الذّات، وتناقضات النّفس الإنسانية، ومن هنا باتت الحاجة لأدوات جديدة تستنطق الخطاب الأدبي، بعيدا عن القراءات النّفسية التّقليدية الّتي تُهمّش النصّ وتَحفل بالسّياق، وهو ما ميّز أعمال العديد من النّقاد في مقاربتهمللنّصوص السّردية.

2. تحوّلات النّقد المغاربي:

لقد استفادت الدراسات الأدبية المغاربية من حقائق علم النّفس، ومفاهيمه، بكيفيات شتى؛ وهو ما تجلى في كثرة الدارسين، الذين اتّخذوا منه سبيلا لفهم النص الأدبي بشكل عام، والشعر بشكل خاص، والّذين ساورا حذو طه حسين، و العقاد، والمازني، وأمين الخولي، ومحمد خلف الله، وإسماعيل أدهم، وغيرهم. ونستطيع أن نتقصى ممارسة

---

(1)- Lydia Flem, Freud poète de l'inconscient, Alliage, N37-38,1998.

(2)- Pierre Bayard, Peut-on appliquer la littérature à la psychanalyse, ed. Minuit, Paris, 2004.

(3)- ينظر، إبراهيم أولحيان، حسن المودن: القراءة والتّحليل النّفسي،، ص96-97.

النّقاد المغاربة للمنهج النفسي في ثلاثة محاور، وهي: دراسة شخصية الأديب، دراسة عملية الإبداع، دراسة العمل الأدبي، وهو ما سنفصّله فيما يلي:

أ- دراسة شخصية الأديب: وهي الدراسة التي تشمل كلّ ما يحيط بالأديب، وما يتعلّق به من دقائق حياته، انطلاقا من إنتاجه، واعتمادا في نفس الوقت على ما يتّصل بالسّياق النفسي، من علم إحياء، ووراثة، ووظائف بيولوجية وفيزيولوجية، وجنسية[1]، إلاّ أنّ ما يميّز منهج دراسة الأديب بعده عن ميدان النقد الأدبي؛ ذلك أنّ البحث فيه يقتصر على صاحب العمل الأدبي و يهمل الأثر الأدبي نفسه.

ب- دراسة عملية الإبداع[2]: وهو منهج يدرس عملية الإبداع الفني ذاتها، متتبعا خطوات العمل الفني، وحاصرا مجالها في فهم عملية الإبداع فقط، في إطار معالجة علمية سيكولوجية، وهو ما يبعده بشكل أو بآخر عن ميدان النقد الأدبي[3].

ج- دراسة العمل الأدبي[4]: ونعني به دراسة النص الأدبي، وتحليله تحليلا نفسيا خالصا، وهذا هو المجال الحقيقي للممارسة النقدية النفسانية، والصلة التي تربط بين الأدب وعلم النفس.

وتساهم هذه المحاور الثلاثة في الإحاطة بجميع جوانب النصّ الأدبي من النّاحية السيكولوجية، على الرّغم ما فيها من سلبيات، قد تبعدها عن الجوانب الأخرى، التي يمكن مشاهدتها في النصّ المنقود، وخاصة الفنيّة منها.

لعبت المعرفة النّفسية دورا كبيرا في مدّ النقاد المغاربة، بالوسائل التي تمكّنهم من فهم الأدب على أساس صحيح، من خلال استخدامهم للمنهج النّفسي الذي استطاع أن يفسّر لنا بعض الجوانب التي ظلت غامضة في شخصيات الأدباء، إذ استطاع أن يلج في نفسيتهم، ويعرف اضطراباتها، واختلالها، وأثرها في إنتاجهم.

---

(1) - زين الدين مختاري، المدخل إلى نظرية النقد النفسي، سيكولوجية الصورة الشعرية في نقد العقاد(نموذجا)، ص 21.

(2)- اهتمّ بهذه الدّراسة مصطفى سويف في كتابه"الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة".

(3)- ينظر، شايف عكاشة، اتجاهات النقد المعاصر في مصر، ص 137، وزين الدين مختاري، المدخل إلى نظرية النقد النفسي، ص37.

(4)- يعدّ عزّ الدين اسماعيل أفضل من طبّق علم النّفس على الإنتاج الأدبي، رفقة محمد خلف الله، وأمين الخولي.

وإذا كانت نماذج تطبيق المعرفة النّفسية على النّصوص السّردية متعدّدة في النّقد العربي، فإنّ حضورها في النّقد المغاربي ظلّ متبذبذبا، وهذا راجع لعدّة أسباب أهمّها تركيز النّقاد على المقاربة الاجتماعية الّتي تتناغم وطبيعة المضامين السّردية ذات الأبعاد الواقعية، بالإضافة إلى تركيز النّقود النّفسية على فنّ الشّعر دون غيره من الفنون.

يُحاول النّقاد المغاربة اليوم التّركيز على استنطاق النّصوص وفق قراءة نفسية حديثة تتناغم مع المناهج البنيوية الّتي تسعى إلى الكشف عن دواخل النّصوص وأسرارها داخل الخطاب اللغوي السّردي، وهذا يأتي استجابة للتّغيّرات الّتي تميّز عالم النّقد، والّتي تُحاول أن تُبعد عن عالم المبدع، لتقترب من عالم النّص.

ولقد تماهى أحمد حيدوش مع الخطاب الّذي يعتبر أنّ الانطلاق في التّحليل النّفسي من حياة صاحب النصّ أصبح من الأمور التّقليدية الّتي لا تخدم الدّرس النّقدي، في عصر فرضت فيه مفاهيمها البنيوية سطوتها على جميع المقاربات، ومن هنا فإنّه ركّز في أغلب دراساته -انطلاقا من التّحليل النّفسي للنصّ الأدبي- على ذلك الجانب المهمّ والخطير الّذي يشكّل اللاوعي في النصّ متمثّلا في اللّغة الّتي تحوّله إلى نسق من الإشارات والرّموز والصّور والإيحاءات، الّتي تؤسّس لنظام رمزي، وتفرض على القارئ اكتشاف ما هو خفيّ تحت عباءة هذا النّسق[1].

كما ساهم فتحي بوخالفة من خلال كتابه التّجربة الرّوائية المغاربية في إرساء دعائم المنهج النّفسي وتطبيقاته على النّصوص السّردية خاصة المغاربية منها، وقد مكّنته الآليات المتعلّقة باللاشعور في رصد أحوال الشّخوص الرّوائية، والتّعريف بوعيها، وعقلها الباطن والظّاهر، والتّأكيد على العلاقات الّتي تربطها بالنّصوص من منطلق التّحليل النصّي الّذي تتطلّبه القراءات النّقدية للسّرد.

3.حسن المودن رائد التّحليل النّفسي:

يجمع جلّ الدّارسين اليوم أنّ النّاقد المغربي حسن المودن من الحاملين للواء الدراسة النّفسية في العصر الحديث، ليس في النّقد المغربي فحسب، بل في النّقد العربي المعاصر،

[1] - ينظر، أحمد حيدوش، إغراءات المنهج وتمنّع الخطاب، دار الأوطان، الجزائر، الطبعة1، سنة2009م، ص9.

حيث تمكّن بفضل طريقته الجديدة في التّحليل أن يغوص في العديد من المتون الرّوائية العربية بغية استنطاق ما خُفي منها، معتمدا على مرجعية غنيّة في تفكيك الشّفرات الّتي تزخر بها النّصوص السّردية، جاعلا من التّحليل النّصي بؤرة للمقاربات السيكولوجية، الّتي تستعين بالمفاهيم الفرويدية، وهو ما يخالف ما كان مطروقا في النّقد العربي والّذي كان يُركزّ على الكاتب والقارئ والسّياق.

حاول حسن المودن أن يعيد النّظر في ثنائية الأدب والتّحليل النّفسي، وإعادة مساءلة العلاقة بينهما، وقلب أركان المعادلة في النّقد النّفسي التّقليدي والقائمة على السّؤال : هل يمكن تطبيق المنهج النّفسي على الأدب؟، واستبداله بالسّؤال: هل يمكن تطبيق الأدب على التّحليل النّفسي؟ انطلاقا من مفاهيم النّاقد النّفساني "جان بيلمان- نويل"، الّذي يدعو إلى مقاربة تستفيد من الدّراسات النّصّية المعاصرة، مع إدماجها ضمن مقاربة نفسانية مفتوحة ومنفتحة، والغاية ليست الكشف عن أمراض الكُتّاب وعقدهم، بل هي مقاربة هذه العلائق والرّوابط المعقّدة بين السّردي والنّفسي، بين الكتابة واللاشعور، وهو ما يؤدي في الأخير إلى معرفة تتأسّس عن الأدب والكتابة[1].

1.3 التّحليل النّفسي عند حسن المودن من السّياق إلى النصّ:

إنّ المتتبّع لجهود حسن المودن في النّقد العربي يُدرك بأنّه يقف أمام مشروع نقدي متميّز لا يقلّ أهميّة عن ذلك الّذي قطعه أقرانه في ظلّ المقاربات البنيويّة وما بعدها، حيث يرجع إليه الفضل في ترسيخ النّقد النّفسي في المغربي العربي، وتحسين أدائه، وإضفاء روح جديدة عليه، بعد أن تراجع مدّه، وانحسر إشعاعه على المستوى العربي، وهذا ما شجّعه على اتّخاذ المسافة النّقدية اللّازمة مع النّقد النّفسي التّقليدي، وتبني مقاربة جديدة عن وعي وتبصّر ودراسة؛ قوامها التّحليل النّصّي، وبؤرة تحليلها النصّ الأدبي، حتى أصبح - على حد تعبير النّاقد محمد الداهي- يصول ويجول دون أن ينافسه و يؤنسه أحد في ركوب غوارب بحره[2].

---

[1]-ينظر، حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص8-9.

[2]- ينظر، محمد الداهي، المقاربة النّفسية للنصّ الأدبي، مقال ضمن المؤلف الجماعي: حسن المودن: القراءة والتّحليل النّفسي، ص46.

ويؤكّد النّاقد في هذا السياق أنه لابد من تأسيس مقاربة نفسانية تجمع بين التّحليل النّفسي والنّظريات النّصية،مع ضرورة تفعيل هذه الإمكانية بمواكبة التطورات التي عرفها التّحليل النّفسي من جهة،وتلك التي تعرفها النّظريات اللّسانية والنّصية من جهةأ خرى،كما أنه ومن الضروري أن نطرح باستمرار الأسئلة المؤرقة على المستوى الإجرائي كيف يمكننا تحويل مفاهيم التّحليل النّفسي إلى أدوات إجرائية في قراءة النّص الأدبي؟وكيف السبيل إلى تشغيل مفاهيم النّظريات اللّسانية والنّصية و التّلفظية من منظور التّحليل النّفسي؟[1]

ويُدعّم الحديث عن المشروع النّقدي عند حسن المودن رسوّه على سكّة التّحليل النفسي في جلّ أعماله، وهذا ما تدلّ عليه كتبه وهي:

- الكتابة والتحوّل: تحوّلات الدّال والمدلول في السّرد العربي الجديد، الصادر سنة 2000م.

- لاوعي النصّ في روايات الطّيب صالح، قراءة من منظور التّحليل النّفسي الصادر في سنة 2002م، وهو في الأصل رسالة دكتوراه.

- الرّواية العربيّة، قراءة من منظور التّحليل النّفسي، الصادرة سنة 2008م.

- الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، الصادر سنة 2009م.

- مغامرات في الكتابة في القصّة القصيرة المعاصرة، القصّة القصيرة بالمغرب أنموذجا، الصادر سنة 2013م.

- القصّة القصيرة والتحليل النّفسي، الصادر سنة 2018م.

هذا بالإضافة إلى ترجمته كتاب "التّحليل النّفسي والأدب" لجان بيلمان نويل، والصادر في القاهرة سنة 1996م، وهو الكتاب الّذي نحسبه أثّر بشكل كبير في توجيه مسيرة النّاقد المنهجية، وسنقف عند تجلّيات المنهج النّفسي في البعض من كتبه، قبل التفصيل في أهمّ دراسة تخصّ التحليل النّصي من منظور التّحليل النّفسي في المغرب العربي.

[1] - ينظر، حسن المودن، التّحليل النّفسي للأدب، مجلّة البيان، العدد338، سبتمبر 1998م، ص31.

أ- الكتابة والتّحوّل: تحوّلات الدّال والمدلول في السرد العربي الجديد: يشتغل حسن المودن في هذا المؤلّف بالبحث في التحوّلات الّتي طرأت على الدال والمدلول في الإبداع الرّوائي والقصصي الحديث، أي تحوّلات النصّ في مستوياته المتعدّدة[1]، والّتي اقتضت استثمار أدوات متعدّدة في النّقد أبرزها آليات النّقد النّفساني، حيث اعتمدها كثيرا في هذه الدّراسة، إما بالإشارة أو باعتماد إحدى مفاهيمه ومن بينها مفهوم"الغرابة المقلقة"الّتي وضعها فرويد في مقاربته للأعمال الأدبيّة، وقد حلّل بها النّاقد نصّ "داء الذّئب" لمحمد غرناط، كما تبنى أقوال فرويد في دراسات أخرى، منها قوله في رواية "لعبة النسيان" لمحمد برادة:"**في هذه الرّواية يتقابل الحب والموت، الأبيض والأسود: هل يعني هذا أنّ الكتابة كما الكائن، لا يوجد إلا منهما وبهما؟...هذه فرضيّة دافع عنها س.فرويد، مؤسّس التّحليل النّفسي كثيرا: فغريزة الموت، كما غريزة الحياة والحب، شرط لأن تكون الثّقافة ممكنة الوجود، حيث إنّ هناك دوما ضرورة تعاون وثيق بين الغريزتين**"[2].

ب- لاوعي النصّ في روايات الطّيب صالح، قراءة من منظور التّحليل النّفسي[3]:اضطلع النّاقد من خلال هذا الكتاب المهمّ بفتح الطّريق ليصبح النصّ الأدبي هو بؤرة التّحليل، باعتباره يتوفّر على لا وعي يُخصّصه، ويكشف الجوانب المسكوت عنها وسط السّياقات الّتي واكبت إنتاج النّصّ، وجعلته محفلا مُعبّرا يتقاطع مع نصوص وتجارب وأحداث أخرى، وقد استفاد من خطابات النّاقد الفرنسي "جان بيلمان نويل" وتطبيقاته بأحسن ما تكون الاستفادة، واستطاع من أن يُخلّص النّقد الأدبي النّفسي من القيود الّتي كانت تُحوّل النّص إلى ذات مطابقة لذات الكاتب، وتتّخذ منه وسيلة لتحليل لا وعي الكاتب،

---

[1]- ينظر، حسن المودن، الكتابة والتّحوّل: تحوّلات الدّال والمدلول في السّرد العربي الجديد، وكالة الصّحافة العربية، مصر، د.ط، سنة 2015م، ص6-7.

[2]- المصدر نفسه، ص69.

[3] - ينظر، حسن المودن، لاوعي النّصّ في روايات الطيب صالح، المطبعة والورّاقة الوطنيّة، مراكش، المغرب، د.ط، سنة 2002م.

ومعرفة عقده ووساوسه، وهي مُطابَقة متعسّفة تؤدي إلى إلغاء خصوصية النصّ واستقلاليته الذّاتية[1].

كما مكّنت نظرة حسن مودن الجديدة للتّحليل النّفسي من إبراز أهميّة العناصر المختلفة المكوّنة لنصوص الرّوائي الطيب صالح، من دوالّ، وأخيلة، ولغات، وعلائق سيميائية تصبّ جميعها في لاوعي، هو بمثابة شريحة من نصّ واسع، قد يحيلنا عند التّأويل والمقارنة إلى لاوعي جماعي يتكوّن من طبقات المتخيّل الجمعي[2]، والجدير بالذّكر القول أنّ نصوص الطيب صالح بما زخرت به من حمولة نفسية وانطباعية ميّزت شخوص الرّوايات وفضاءاتها المكانية والزّمانية مكّنت حسن المودن من خوض هذه المغامرة الجديدة، من خلال تجريبه لمنهج ينحدر من صلب التحليل الفرويدي.

ج- مغامرات في الكتابة في القصّة القصيرة المعاصرة:هو عبارة عن دراسات نقدية تطبيقية، حاول من خلالها حسن المودن أن يفيد من آليات التّحليل النّفسي، خاصة ما يتعلّق منها بآراء سيجموند فرويد، وهذا ما وضّحه في مقدّمة كتابه بقوله عن العمل أنّه:"**محاولة في النقد القصصي التطبيقي الذي يتبنى التّحليل النّصي منهجا، جاعلا من النص بؤرة التّحليل، مستعينا بالمفاهيم النّفسانية الفرويدية، ومستحضرا السّياق التاريخي والثقافي والأدبي، وغايته رصد أهم التحولات النوعية التي عرفتها الكتابة القصصية، وذلك من خلال أسئلة أساس، من أهمّها: هل تكتب القصّة القصيرة كما تكتب بالأمس؟ عرف هذا الجنس الأدبي تحوّلات في طر ائق الكتابة ومناهجها وأشكالها؟ ماذا عن هذا الشّكل الجديد الذي يعرف ازدهارا اليوم: القصة القصيرة جدا؟ ماذا أضافت الكاتبات اللّو اتي يتز ايد عددهن اليوم إلى جنس القصة القصيرة؟ إلى أي حد**

---

[1]- ينظر، محمد برادة، توسيع آفاق القراءة والتّأويل، مقال ضمن المؤلف الجماعي: حسن المودن: القراءة والتّحليل النّفسي، ص13-14.

[2]- ينظر، المرجع السّابق، ص14.

ساهم الكتاب والكاتبات في تأسيس مفهوم جديد للكتابة القصصية؟ما هي الشروط الموضوعية التي فرضت هذا التحول في مفهوم الكتابة؟"[1].

أراد النّاقد في تشريحه لهذه المغامرات القصصية تصنيف النّصوص السّردية وأصحابها بحسب مظاهر التّحليل النّفسي، فقد عالج في قصص محمد عز الدين الّتازي مثلا قضيّة الكتابة والحلم، وهو الأمر الذّي اهتمّ به فرويد في بداياته العلمية من خلال إصداره لكتاب "تفسير الأحلام" سنة 1899م[2]، ثم كتاب "الهذيان والحلم في رواية غراديفا" لصاحبها ينسن[3]، حيث وقف المودن عند المجموعة القصصية: شمس سوداء، واعتبر أنّ أوّل ما يلفت النّظر فيها أنّ الأحلام لا تحضر باعتبارها عناصر جزئية من عناصر التّكوين المحكي، بل إنّ القصّة في مجموعها عبارة عن حلم لا يقول الواقع الاجتماعي فقط، بل يصدح بالواقع النّفسي أيضا[4].

كما كانت المقاربة النّفسية حاضرة في قراءته للمجموعات القصصية الأخرى، ومنها تشخيصه للواقع النّفسي في قصص "إدريس الخوري"، أو تطبيقه لمصطلح "الرّواية العائلية"[5]لفرويد على قصص "محمد زفزاف"، إلى غير ذلك من الدّراسات الّتي أماطت اللّثام على زوايا كانت مظلمة في الخطاب السّردي، وهذا ما يُحسب للنّاقد حسن المودن الّذي مكّنته جرأته المنهجية، وروحه العلمية على الغوص في أسرار النصّ، مجتهدا في الكشف عن ما يثيره من تساؤلات، وما يبوح به من أسرار، بعيدا عن قيود السّياقات الخارجية المؤثّرة في الإبداع.

---

[1]- حسن المودن، مغامرات في الكتابة القصيرة المعاصرة: القصّة القصيرة بالمغرب أنموذجا، اتّحاد كتّاب المغرب، الرباط، د.ط، سنة 2013م، ص4.

[2]- Sigmund Freud, L'interpretation des reves,1899,TradFrancaise,PUF, 1926,1971.

[3]-S Freud, Délire et reves dans la Gradiva de Jensen, 1906, Trad Fran,1949,1971.

[4] - ينظر، حسن المودن، مغامرات في الكتابة القصيرة المعاصرة، ص48-49.

[5]- الرّواية العائلية: مصطلح نفساني وضعه فرويد في نصّ أصدره سنة 1909م تحت عنوان: رواية العصابيين العائلية، وتعتبر "مارت روبير" أوّل من وظّف هذا المصطلح النّفساني في قراءة الأدب والرّواية أساسا والمقصود بـ "الرواية العائلية" هو أن هناك حكاية عائلية أصلية هي، منذ القدم، نواة كل الخرافات والأساطير والآداب السردية، ينظر، حسن المودن، الرواية والتّحليل النّصي، ص208.

كما حظيت القصّة القصيرة عند النّاقد بإصدار دراسة جديدة سنة 2018م عنونها بـ:"القصّة القصيرة والتّحليل النّفسي"، ذلك أنّ هذا النّوع الأدبي كان له دور حاسم في إعادة تأسيس التّحليل النّفسي على يد "جاك لاكان"، ومن هنا فقد اعتبر حسن المودن أن القصةَ القصيرةَ لم تنل بعدُ في النّقد النّفسي ما تستحق من الدّرس والتّحليل، وهذا ما جعله يعكف على التّركيز على نصوص قصصية رأى أنّها تستجيب لتلك المقاربة، من ذلك أعمال الكاتب الأرجنتيني "خورخي لويس بورخيس"، وهي قراءةٌ يقودها هذا الافتراض أن هذا الكاتب الشهير كان يعيد قراءة فرويد، ويعيد تقويم المنظور التحليليَّ، من خلال مبدأ تطبيق الأدب على التّحليل النّفسي، كما انصرفت القراءات الأخرى الّتي ضمّها هذا الكتاب إلى قصص مغربية تنحو نحو بناء حوارٍ بين التحليل النفسي والكتابة القصصية، أي نحو التناوب وتبادل الأدوار، بحيث يمكن أن يجري تطبيق الأدب على التحليل النفسي، كما يمكن تطبيق التحليل النفسي على الأدب[1].

2.3 التّحليل النصّي للرّواية من زاوية التّحليل النّفسي عند حسن المودن: استطاع حسن المودن من خلال كتاب "الرّواية والتّحليل النصّي: قراءة من منظور التّحليل النّفسي" أن يؤسّس لقراءة عربية جديدة للنّصوص السّردية تواكب النصّ وتعتمد أدوات التّحليل النّفسي انطلاقا من أفكار "جان بيلمان نويل"، وتحاول أن تملأ الفراغ المسجّل في الدّراسات النّفسية للأدب في الكتابات العربية والمغاربية؛ فقليلة هي "**الدّراسات النّفسانية للكتابة الأدبيّة، والرّوائية خاصة، مقارنة بالدّراسات الاجتماعية والتّاريخية والبنيوية والسيميائية. ولأنّ الأدب هو هذا الشّيء الّذي يسمح بأن نقاربه من منظورات متعدّدة، فإنّ هذا الكتاب يقدّم محاولات تطبيقية تستعين بالمرجعيات النّفسانية في مقاربة بعض الأعمال الرّوائية العربية المعاصرة، من المغرب والمشرق**"[2].

أ- طبيعة المنهج والمنهجية في الدّراسة: حاول حسن المودن أن يعطي توصيفا دقيقا لمنهجه المتّبع في هذه الدّراسات، وأكّد على أنّه منهج نفسيّ يختلف عن النّقد النّفسي

---

[1]- ينظر، حسن المودن يتناول القصة المغربية من منظور التحليل النفسي، الموقع الإلكتروني:
https://meo.news/index.php

[2]- حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص7.

التّقليدي في مقاصده وإجراءاته، "**ويتعلّق الأمر بمنهج التّحليل النّصّي الّذي يفتح الطّريق ليصبح النصّ الأدبي هو بؤرة التّحليل، دون إقصاء كلّيّ للكاتب أو القارئ أو السّياق**"[1]، ويبرّر هذا الاختيار بقوله:"**وقيمة هذا المقترح المنهجي أنّه لا يُحوّل النّصّ إلى ذات مطابقة لذات الكاتب، ولا يتّخذه وسيلة لتحليل لاوعي الكاتب أو الشّاعر، ذلك لأنّ هذه المطابقة لا تخلو من اختزال أو تعسّف يؤدي إلى تجاهل خصوصية النّصّ واستقلاليته، كما يؤدي إلى إهمال الجوانب الشّكلية والفنّية، فالنّقد النّفسي التّقليدي إذ يُركّز على المدلول الرّوائي، يكون بعيدا عن إدراك القوّة الّتي يمكن أن تكون للدّال الرّوائي**"[2].

إنّ هذا المنهج الّذي يتبنّاه النّاقد يتيح للقارئ اكتشاف العناصر المكوّنة للنصّ الرّوائي، من موضوعات وأشكال وتقنيات، وأساليب، وتخييلات، ولغات، ويجعل من فعل الكتابة فضاء تخييليا مفتوحا على المناطق الملتبسة الّتي تعكس مشاعر الذّات وتجاربها[3]، وتخرج بها "**إلى فسحة التّعدّد والتّنوّع في التّجلّيات والتحقّقات النّصيّة لتجعل من النصّ مجالا لإبلاغ صوت الكينونة المتكلّمة خارج أسيجة الواقع والمقتضيات الاجتماعية، وخارج ما تلوكه الخطابات السّائدة الحريصة على تنظيم وقولبة العلائق وسنن القول بين النّاس**"[4].

وإذا كان النصّ السّردي مفتوحا على جملة من القراءات المتعدّدة، فإنّ المنهج الّذي يقترحه حسن المودن لا يتعسّف في استعمال قوانين وآليات استعمالا عشوائيا لإرضاء ضوابط المنهج، بل هي مقاربة غير مقنّنة، ولا محكمة، ولا صارمة، ذلك أنّ الغاية هي الأساس في فتح حوار حرّ بين النّصّ والقارئ، ومن هنا فالنصّ هو الّذي يفرض منهج قراءته، وزاوية مقاربته، بالطّريقة الّتي تجعل المنهج يبدو كأنّه لا يطلب الاستقرار، ويقوم في كلّ مرّة بفتح الطّريق أمام احتمالات جديدة، كما يسمح للنّصّ بالمساهمة في توليد

---

[1]- حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي ، ص7.

[2]- المصدر نفسه ، ص7.

[3]- ينظر، المصدر نفسه، ص7.

[4]- محمد برادة، تقديم كتاب حسن المودن: لاوعي النّصّ في روايات الطيب صالح، ص10.

امتدادات الخطاب الأدبي وتوسيعها[1]، والوصول بالقارئ إلى نقل لاشعوره إلى الآخر، وهذا ما عبّر عنه "جان بيلمان نويل" في قوله:"**القارئ الّذي يسبح في النّصّ لأجل الإصغاء إلى عمل لاشعوري، عندما يأخذ القلم ليتوجّه إلى الجمهور، عليه أن يكتشف في نفسه وسائل تسمح له بنقل هذا العمل إلى لا شعور قرّائه**"[2].

كما يوحي العنوان الفرعي لهذه الدّراسة وهو: قراءة من منظور التّحليل النّفسي بأنّ النّاقد يقف على الصلات والرّوابط الّتي تقوم بين ما هو سردي في الرّواية، وما هو نفسي فيها، أو هي العلاقة بين الكتابة واللاشعور[3]، الأمر الّذي جعله يمزج بين المقاربة الموضوعاتية والمقاربة النّفسانية في القسم الأوّل من الكتاب وبين المقاربة الأسلوبية والمقاربة النّفسانية في القسم الثّاني منه[4]، وهذا ما يجعلنا نستنتج بأنّ النّاقد قد استفاد من المناهج البنيويّة، لكنّه أعطى للتّحليل النصّي معنى خاصا عندما قرنه بالتّحليل النّفسي، وهذا ما يميّز هذا العمل ويجعله رائدا في النّقد المغاربي، بل في النّقد العربي كذلك.

جاء هذا الكتاب في مدخل نظريّ مرجعي، وقسمين تضمنا سبع عشر قراءة تحليلية لثماني عشرة رواية عربيّة، فأمّا المدخل فقد حاول فيه النّاقد أن يجيب على سؤال هام مفاده: هل يمكن تطبيق الأدب على التّحليل النّفسي؟، وهو سؤال طرحه "بيير بيار"، وقد وصل في النهايةحسن المودن إلى أن يفترض بأنّ الرّواية هي اليوم من أجناس الأدب الأكثر تأهيلا لتقول الكثير للتّحليل النّفسي عن الإنسان في وقتنا الرّاهن لما لهذا الجنس الأدبي من إمكانات تسمح له باستنطاق ذاتية الإنسان في علاقاته المعقّدة بالتّاريخ والمجتمع والآخرين...[5]وهو رأي تأسّس عليه التّحليل النّصي النّفسي للرّوايات العربيّة انطلاقا من مقولة سيجموند فرويد: **"إنّ الشّعراء والرّوائيين هم أعزّ حلفائنا، وينبغي أن نُقدّر شهادتهم أحسن تقدير، لأنّهم يعرفون أشياء...لم تتمكّن حكمتنا المدرسية من الحلم بها.**

---

[1]- ينظر، حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص8.

[2]- جان بيلمان- نويل، التّحليل النّفسي والأدب، ص117.

[3]- ينظر، سعيد يقطين، الرّواية بين التّحليل النّفسي والنّقد الأدبي، حسن المودن نموذجا، مقال ضمن المؤلف الجماعي: حسن المودن: القراءة والتّحليل النّفسي، ص33.

[4]- ينظر، حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص8-9.

[5]- ينظر، المصدر نفسه، ص24.

فهم في معرفة النّفس معلّمونا، نحن معشر العامة، لأنّهم ينهلون من موارد لم نفلح بعد في تسهيل ورودها على العلم"[1].

وأما الدّراسة التّطبيقية فقد ارتكزت في قسمي الكتاب على متن روائي ثريّ غطى الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، وشغل نصف قرن ونيّف من الزمن، وجعل من هذا النوع السّردي مرتعا خصبا لتحليله النّفسي النّصّي، والمجال الحيوي للاستبطان، والكشف والولوج إلى مدائن الأعماق والنّصوص، مستفيدا من أساطين علماء النّفس الّذين اهتموا بالأدب من قبيل، فرويد، جاك لاكان، باشلار، شارل مورون، بول ريكور، لكن تبقى استفادته بشكل خاص من الأعلام الثلاثة الّذين احتفى بهم في مدخل هذا الكتاب، وهم "جان بيلمان نويل"، و"ليديا فليم"، و"بيير بيار"، وقد كان قصده دائما وهو يتجوّل عبر المتون الرّوائية الوصول بمنهج جديد يسمح بالقبض على ناصية النّفس، وناصية النصّ في آن واحد[2].

ب-تجلّيات المقاربة النّفسية في هذا الكتاب: حاول النّاقد أن يربط الكتابة في القسم الأوّل من الدّراسة بموضوعات تدور في فلك البعد النّفسي، وعلاقته المباشرة بالنّصوص، فقد تناول: الكتابة والعنف في رواية "الخبز الحافي" لمحمد شكري، والكتابة والألم، والكتابة والحداد في رواية "لعبة النسيان" لمحمد برادة، والكتابة واللامعقول في رواية "الهؤلاء" لمجيد طوبيا، والكتابة والصحراء في رواية "التبر ونصوص أخرى" لإبراهيم الكوني، والكتابة وعودة المكبوت في رواية "خطبة الوداع" لعبد الحي مودن، والكتابة والسفر في رواية "مصابيح مطفأة" لأحمد الكبيري، وجدل الجسد والكتابة في رواية "أشجار القيامة" لبشير مفتي، والكتابة والمرأة في رواية "سوق النساء"لجمال بوطيب، ومالا يمكن أن تقوله الرّواية في رواية "مسألة وقت" لمنتصر القفاش، وهي كلّها قراءات أراد من خلالها الكاتب إقامة علاقة مفتوحة بين النص والنّفس الإنسانية، من خلال الوقوف على الحوافز النّفسية والّتي دفعت الرّوائيين إلى ممارسة الكتابة.

---

(1)-S Freud, Délire et reves dans la Gradiva de Jensen,p.127.

(2)- ينظر، نجيب العوفي، جدل التّحليل النصّي، والتّحليل النّفسي، مقال ضمن المؤلف الجماعي: حسن المودن: القراءة والتّحليل النّفسي، ص20-21.

في حين عكفت قراءات القسم الثّاني على كشف بعض التقنيات والأساليب السردية التي وظفتها بعض الروايات العربية في تشخيص الحياة النفسية للشخصيات الروائية[1] وهي: التّحليل النّفسي للأناوبوليفونية المحكي في رواية "الحيّ اللاتيني" لسهيل إدريس، والمونولوج الداخلي في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، والمونولوج المسرود في روايات مبارك ربيع، ومحكي الأنشطة النفسية غير اللفظية في رواية "عزبة المنيسي" ليوسف القعيد، والرّواية روايات في رواية "دم الوعول" لمحمد عز الدين التازي، والانزياح النّوعي في روايات فوزية شويش السالم، وبلاغة الرّواية العائلية في رواية "المنبوذ" لعبد الله زايد.

ومن الضروري الوقوف عند بعض القراءات المميّزة لحسن المودن في هذا الكتاب، لنكتشف روحه النّقدية، وأسلوبه الجديد في التعامل مع النّصّ وفق رؤية نفسانية، تختلف كثيرا عن الطريقة الكلاسيكية الّتي كانت تركزّ عن الجانب المرضي والعقدي عند صاحب النصّ.

***-الكتابة والعنف:** تعتبر رواية الخبز الحافي لمحمد شكري واحدة من الأعمال الّتي انسجمت وتناغمت مع دعوة حسن المودن لاستنطاق النصّ السّردي، وإبراز ما فيه من مواقف تساهم في مراجعة التّحليل النّفسي، والإفصاح عن ظواهر أصبحت تشكّل يوميات الإنسان في الكثير من المجتمعات، ومن هنا فقد اعتبر هذه الرّواية "**وثيقة تدين و اقع العنف والتّهميش الّذي عاشته فئات من المجتمع المغربي الحديث**"[2]، إلاّ أن الأمر اللاّفت في الدّراسة عنده هو التّأكيد على أنّ الكتابة لا تكتفي دائما بنقل العنف كما يقع في مجتمع وتاريخ معينين، بل إنّ فعل الكتابة نفسه يمكن أن ينصرف إلى فعل عنف، أو فعل انفعال من مورس عليه العنف، ويمكن للكتابة وهي تكتب العنف أن تأتي هي نفسها كتابة عنيفة مدمّرة انقلابية انتهاكية[3].

---

[1]- ينظر، محمد نجيم، الرواية العربية: قراءات من منظور التحليل النفسي جديد حسن المودن، جريدة الاتحاد الإماراتي، 10أوت2008م

[2]- حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص28.

[3]- ينظر، المصدر نفسه، ص28.

وعلى هذا الأساس فقد اتّخذ النّاقد رواية الخبز الحافي نموذجا للدّراسة، ليس فقط من أجل الوقوف عند ما تقوله الرّواية عن العنف، بل من أجل الإجابة عن المسائل الآتية: كيف تقول الرّواية العنف؟ كيف يكتب محمد شكري العنف؟ ماذا عن عنف الكتابة عند محمد شكري؟ ماذا تشكّل الكتابة بالنسبة إلى هذا الكاتب الّذي عانى في طفولته ومراهقته من شتّى أنواع العنف والقهر والألم؟[1]

ولقد اضطرّ حسن المودن إلى تعريف العنف كونه كلّ إكراه نفسي قادر على إثارة الرّعب والخوف، والألم، والموت[2]، ليقف عند مظاهر العنف في الرّواية، والّذي انعكس بشكل آخر على لغة محمد شكري الّذي تجرّع العنف في أماكن متعدّدة، وأصبح خطابه بنفس درجة مأساته أو أكثر، حيث صوّر عنف أبيه قائلا:"**أبي يعود كلّ مساء خائبا. نسكن في جرة واحدة...إنّ أبي وحش. عندما يدخل لا حركة، لا كلمة إلاّ بإذنه...، يضرب أمي بدون سبب**"[3]، وهو هذا الّذي "**أخذ يركلني ويلكمني...رفعني في الهواء، خبطني على الأرض، ركلني حتى تعبت رجلاه وتبلّل سراويلي**"[4].

كما اعتبر النّاقد قساوة الأب المحفّز على اشتغال خيال الرّوائي، وبالتّالي ممارسة عنفه على الصّفحة البيضاء بالكتابة العنيفة، حيث يتساءل: "**ألم تكن قساوة الأب هي الّتي تقف وراء اشتغال خياله؟ ألم يكن عنف أبيه هو ما أيقظ شهوته إلى هذا الجسد الآخر: جسد الصّفحة البيضاء العذراء؟ ألم تكن قساوة أبيه وراء رفضه الارتباط بالمرأة، والزّواج بالكتابة؟**"[5]، ويستمر عنف الكاتب عند محمد شكري عندما يترجمه إلى انفجار الشّكل أو الجنس الأدبي، ويدخل إلى منطقة الصّدام بين الأشكال والأجناس، حيث يعلن في غلاف كتابه على أنّ العمل رواية، ويعود بعد ذلك ليقول في الكلمة الّتي افتتح بها

---

[1]- ينظر، حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي ، ص29.

[2]- ينظر، المصدر نفسه، ص29.

[3]- محمد شكري، الخبز الحافي، نشر الفنك، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، سنة 2007م، ص8.

[4]- المرجع نفسه، ص6.

[5] - حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص34.

المؤلّف[1]: **"...هذه الصّفحات عن سيرتي الذّاتية كتبتها..."**[2]، وهذا الّذي يبدو تناقضا لا يصدر إلا من كاتب شرب العنف حتى الثّمالة، وأراد أن يصرّفه في عمله الإبداعي، محدثا تدميرا للحدود بين الأجناس، ومنتهكا للنّظم السّردية المألوفة.

ثم خلص حسن المودن في الأخير بالتّأكيد على أنّ هذه الرّواية ظلّت تمارس العنف على كاتبها، ذلك أن شكري ظلّ لا يعرف إلا بعمله الأوّل، وهو ما عبّر عنه الأخير في حوار قائلا:"**إنّ الخبز الحافي لا تريد أن تموت، وهي تسحقني...فالخبز الحافي لا تزال حيّة ر افضة أن تموت. ابنة عاهرة. الأطفال في الشّوارع لا ينادونني شكري، بل ينادونني: الخبز الحافي**"[3].

***- جدل الجسد والكتابة:** يعالج النّاقد هذه الثّنائية وهو يقرأ رواية "أشجار القيامة" لبشير مفتي، والأكيد أنّ الرّبط بين الجسد والكتابة ينطلق من ذلك التّعبير عن حكاية الجسد الّذي يعيش ألما وعنفا ليجد الكتابة تذوب في معالمه فتشكّل معه ذاتا واحدة تنتج الخطاب العاكس للصّراع الّذي يعيشه الرّوائي مع نفسه، فهذه الرّواية "**وإن كانت تقول الحبّ والجنس والشّهوة واللّذة، فإنّها لا تقول ذلك إلاّ في علاقة بالقهر والاغتراب، بالسّجن والاعتقال، بالعنف والألم، بالانتحاروالموت، بالهذيان والجنون. وهي إذ تقول حكاية الجسد المقموع والمقهوروالمسجون والمعذّب والمحروم والمقتول، فإنّها بذلك تريد أن تحدّثنا عن قسوة الحب وعنفه: حبّ الثّورة أو حبّ المرأة أو حبّ الكتابة**"[4].

لقد تحوّل الجسد في نظر حسن المودن من كونه موضوعا للكتابة إلى اعتباره ذاتا، ومنتجا للقول والكلام، فالظّروف المأساوية الّتي عاشها الراوي تفترض أنّ الجسد هو الّذي يتكلّم ولكن بطريقة مغايرة، أشبه ما تكون بكلام الهذيان في تنقّله بين الأزمنة والأمكنة، وفي تفكّكه وانتثاره، وفي تدفّقه واندفاعه[5]، وقد أورد النّاقد هذا المقطع للتّدليل على

---

[1]- ينظر، حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص34.

[2]- محمد شكري، الخبز الحافي، ص4.

[3]- فلانزويلا خافيير، حوار مع محمد شكري، جريدة البايس 2002/10/05م.

[4]- ينظر، حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص103.

[5]- ينظر، المصدر نفسه، ص107-108.

ذلك:"**كرهت حياتي من قبل، كيف كانت يا ترى. عراء الأيام، ودهشة الطّفولة، سحر الحبّ. حنان الأمومة..معابر الذّاكرة، شوارع الحبّ المثقوب بالآمال الضائعة، الثّورة المغدورة، زمن القتل، والفظاعة، وغياب الطموح، وانكسارات الجسد على سكك القطارات الموبوءة، والخيانات. أزقّة الموت، وحروب تقع لتفجّر العالم...**"[1].

والنّاقد من خلال عرضه لهذا الهذيان الوارد في الرّواية يدعو ضمنيا إلى تكسير الحواجز بين جسد النصّ وجسد القارئ، ذلك أنّ جسد النّص هو الأقدر على التّعبير عما يُمارس على جسد الكاتب من عنف نفسي، يتطلّب آليات جديدة للكشف عنه، بعيدا عن فكرة العقد والأمراض الّذي طالت الرّوائي في الدّراسات النّفسية السّابقة.

***-التّحليل النّفسي للأناوبوليفونية المحكي:** اعتبر حسن المودن رواية الحيّ اللاتيني للكاتب اللّبناني سهيل إدريس من الرّوايات العربيّة الأولى الّتي دشّنت بحثا نوعيا غايته تطوير التّحليل النّفسي للشّخصيات التّخييلية، حيث شكّلت بالنّسبة للباحثين النّموذج الأمثل للدّراسات النّفسية، ذلك أنّها كشفت عن الصراع بين الأنا والآخر، والآخر هنا ليس عنصرا خارجيا، بل هو الجزء اللامرئي منّا المتمثّل في تلك الأصوات الّتي تفكّر وتحسّ وتتكلّم في دواخلنا[2]، والّتي تحتاج إلى أساليب وأدوات جديدة للإفصاح عن أسرارها وتمظهراتها، وهو ما عالجه النّاقد في قراءته لهذه الرّواية.

حاول حسن المودن أن يستفيد من خطاب "دوريث كوهن" خاصة ما يتعلّق منه بمصطلح "المحكي النّفسي"، والّذي يقصد به خطاب السّارد بضمير الغائب عن الحياة الدّاخلية للشّخصية الرّوائية[3]، وهو شكل سردي ضروري للسّارد في الكشف عن الحياة النّفسية للشّخصيات الرّوائية، واعتبارا لذلك فإنّ المحكي ينتسب في صياغته الخطابية إلى السّارد لا إلى الشّخصية[4]، وهو ما يوضّحه في هذا النّموذج من الرّواية:"**كان يريد أن يحيط**

---

[1]- بشير مفتي، أشجار القيامة، الدار العربيّة للعلوم، منشورات الاختلاف، بيروت، لبنان، د.ط، سنة 2005م، ص11.

[2]- ينظر، حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص148.

[3]-Dorrit Cohn, La transparence intérieure, Traduction française, éd.Seuil, Paris, 1981, p.37-74

[4]- ينظر، حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص149.

نفسه بالكتب من كلّ جانب، فلا يزهد في القراءة، ولا يستطيع أن يخترق هذا النّطاق الّذي ضربه حوله. ولكنّه لم يكن بحاجة إلى هذا كلّه. فما هو بخارج ولو فتّحت الأبواب كلّها، لأنّه لا يستطيع الخروج. كان يعيش حينذاك داخل نفسه..."[1].

كما يؤكّد النّاقد على الأهميّة الكبيرة الّتي يكتسيها المحكي النّفسي في تشخيص الأنشطة النّفسية غير اللّفظية، "**والّتي لا تستطيع الشّخصية نفسها أن تصوغها صوغا لفظيا، فهي تعرف هذه الأنشطة لكنّها لا تستطيع أن تعبّر عنها. إنّها أنشطة صامتة وملتبسة وغامضة، ذات طبيعة غير لفظية، تعيشها الشّخصية ولا تعبّر عنها لفظا، تعبّر عنها بلغة أخرى غير لفظية، قد تكون لغة الحركة والجسد**"[2]، ونتيجة لذلك اعتبر أنّ المحكي النّفسي يلعب دور الوساطة السّردية بالنسبة إلى الحياة الداخلية للشّخصية، وهو ما جسّده حسن المودن في تعامله مع الجانب النّفسي لشخوص هذه الرّواية.

ثم يتحدّث النّاقد عن المونولوج الدّاخلي الّذي تميّزت به الكثير من محطّات الرّواية، وهو يعكس صراعا نفسيا يعيشه العالم الدّاخلي للشّخصية، حيث تكشفه الأصوات المتعارضة المتناقضة مُشكّلة ما يعرف بالبوليفونية، وهو مصطلح حدّده "ميخائيل باختين" في أعماله الّتي اهتمّت برصد ظواهر الانقسام والتّنافر والتّعارض، الّتي تضع حدا لأسطورة وحدة الذّات المتكلّمة، حيث يقول: "**إنّ صوتا واحدا لا ينهي شيئا، ولا يحلّ شيئا، صوتان اثنان هما الحدّ الأدنى للحياة، الحدّ الأدنى للكينونة**"[3]، وهو ما لاحظه المودن في بعض النّماذج ومن بينها: "**ولكن لماذا قدم إلى باريس في الحق؟ أفرارامن..الخطيئة نفسها. أخرس هذا الفضول! إنّك الآن في باريس، حسبك هذا. أتيت فلا تسل لم أتيت. عش قليلا دون ما تفكيروتدبير. عيش بوهيميا. لعلّك تدرك فيما بعد السّبب العميق لمجيئك، ربّما تدرك ذلك إذ تعود إلى بلادك. ولكن ذلك يعجزني. إنّني لا أستطيع، إنّ أغلالا ثقيلة**

---

[1]- سهيل إدريس، الحي اللاتيني، دار الآداب، بيروت، شركة النّشر والتّوزيع المدارس، الطبعة15، سنة 2007م، ص79.

[2]- حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص149-150.

[3]- ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، مراجعة: حياة شرارة، سلسلة المعرفة الأدبيّة، دار توبقال للنّشر، الدار البيضاء، المغرب، دار الشّؤون الثّقافية العمامة، بغداد، العراق، الطبعة1، سنة 1986م، ص366.

تربطني به"[1]، وأحال هذا النّموذج وغيره إلى القول بأنّ وعي الشّخصية مقسّم إلى أصوات متعدّدة، ففي داخل الشّخصية لا يتكلّم صوت واحد، بل أكثر من صوت[2]، وهذا ما يعكس التناقضات والصّراعات الّتي يعيشها شخوص الرّواية مع أنفسهم، والّتي تستدعى رؤية نفسية جديدة تغوص في عمق المحكي، وتبرز ظاهرة تعدّد الأصوات في السّرد.

*- **الرّواية العائلية عند عبد الله زايد:** توصّل حسن المودن إلى تطبيق مصطلح "الرّواية العائلية" الّذي وضعه "سيجموند فرويد" على رواية "المنبوذ"[3] للكاتب السّعودي عبد الله زايد، "**والمقصود بالرّواية العائلية أنّ هناك حكاية عائلية أصلية، هي منذ القدم نواة كلّ الخرافات والأساطير والآداب السّردية. وهذه الحكاية العائلية حكايتان: حكاية "العالم العائلي المعثورعليه"، وفي هذه الحكاية نجد إعادة صوغ للعائلة الواقعيّة الّتي خيّبت الآمال، وتعويضها من خلال عمليات التّمثيل والتّخييل بعائلة أخرى ملكيّة ونبيلة و"حكاية العالم العائلي المعاش"، وفي هذه الحكاية لا تعوّض العائلة الواقعيّة بأخرى متخيّلة، بل تتمّ مواجهة عنصرغير مرغوب فيه من عناصرهذا العالم العائلي المعاش من أجل أن يستعيد خصائصه الأصلية والطّبيعية**"[4].

تتطابق رواية المنبوذ -حسب قراءة النّاقد- مع حكاية العالم العائلي المعاش، وهي تركّز على الّذي تنبذه عائلته، فتقصيه، وتبعده، وتطرده من عالمها، ويجد المنبوذ نفسه مرغما على الانفصال عن عالمه العائلي الأصلي، ويُجبر على الهجرة بعيدا[5]، وهي تؤسّس لرواية عائلية أخرى على مستوى الكتابة (الشّكل)، حيث تتبدى فيه علامات أهمّها: تعدّد الرّواة والأصوات، توالد الحكايات وتشابكها، التّهجين وتكسير الحدود بين الأجناس الأدبيّة، المونولوج الدّاخلي، وهي علامات تقف ضدّ النّبذ والإقصاء، مستحضرة بطبيعتها ذلك الآخر المقصي المنبوذ[6].

---

[1]- سهيل إدريس، الحي اللاتيني، ص10.

[2]- ينظر، حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص160.

[3]- ينظر، عبد الله زايد، المنبوذ، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة1، سنة 2005م.

[4]- ينظر، حسن المودن، الرّواية والتّحليل النّصّي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، ص208.

[5]- ينظر، المصدر نفسه، ص209.

[6]- ينظر، المصدر نفسه، ص210.

لقد تناغمت رواية المنبوذ مع آلية التّحليل النّفسي الّتي اختارها حسن المودن في قراءته، والّتي توحي لنا بوضوح استفادته من النّظريات والمصطلحات الّتي جاء بها علماء النّفس الحديث، ومن بينهم فرويد صاحب مصطلح الرّواية العائلية، والّذي يدلّ على تلك العلاقة الوطيدة بين التّحليل النّفسي والأدب، وهي علاقة ركزّ عليها ناقدنا وهو يجول في ثنايا هذه الرّواية.

والأكيد أنّ هذه النماذج المعروضة من كتاب الرّواية والتّحليل النّصي، أو الكتب السّابقة، أبانت عن مقدرة حسن المودن العالية في التّعامل مع النّصوص السّردية وفق مقاربات نفسانية تهتم بالجانب الموضوعاتي كونه يسعف على استنطاق وعي النّص، وبيان ما يعتريه من أهواء وإشارات نفسية، وتستلهم آلياتها من مؤسسي التّحليل النّفسي، أو الّذين مكّنتهم معارفهم الواسعة من تطوير هذا المجال والاستفادة منه سواء في قراءة النصّ الأدبي، أو في اعتماد رؤية جديدة تجعل من الأدب محور التّحليل النّفسي، وهذا الّذي مكّن هذا النّاقد من أن يتبوّأ منزلة كريمة ضمن نقاد العالم العربي، ذلك أنّه اقتحم عوالم يصعب على الباحث الولوج إليها، فالأمر يتعلّق بعالم نفسي زئبقي يحسن الإضمار بين سطور السّرد.

4. خاتمة: خلصت هذه الدراسة إلى نتائج نُجملها فيما يأتي:

1- لم يهتم النّقاد المغاربة كثيرا بالمنهج النّفسي أداة لمقاربة النّصوص السّردية، بالشّكل الّذي لاحظناه في النّقدين التّاريخي والاجتماعي، ولعلّ هذا راجع بالأساس إلى طبيعة المدوّنة الأدبيّة العربيّة، والّتي التزمت في معظمها تصوير حالة المجتمعات ومظاهر تخلّفها، وأغفلت في الوقت نفسه الغوص في الحالات النّفسية المسبّبة للإبداع، ذلك أنّ النّفس الإنسانية بقيت عصيّة على الفهم إلاّ ما كان من جهود علماء النّفس الغربيين، لكن على الرّغم من ذلك فقد سجّلت بعض الجهود المتميّزة في المغرب العربي.

2- استثمرت الدّراسات النّقدية المغاربية في مفاهيم التّحليل النّفسي الجديدة، حيث تمكّن جملة من النّقاد من القفز على النظرّيات الكلاسيكية القديمة، واختاروا لأنفسهم طريق التّحليل النّصي الّذي يجمع بين المعارف اللّسانية، وطرائق التّحليل النّفسي المختلفة، ومن هنا فقد شكّلت جهود حسن المودن، وفتحي بوخالفة، وأحمد حيدوش، تجارب رائدة ليس

في المغرب العربي فقط، بل في البقاع العربيّة، ذلك أنّ عمليّة المثاقفة مع نقاد الغرب، ومواكبة التّطوّرات الحاصلة في ميدان علم النّفس، وتطبيقاتها على الأدب، جعلت هذه - على قلّتها- منسجمة مع ما تتطلّبه النّصوص السّردية من إدراك للاوعي المبطّن في بنائها ومضامينها.

3- لقد مكّنت الجوانب المعرفية النّفسية المتعدّدة الأوجه عند حسن المودن من الغوص في إشكالية العلاقة بين التّحليل النّفسي والأدب، وساهمت في تغيير تلك النّظرة التّقليدية لتلك العلاقة، والّتي تفيد بأنّ المعرفة النّفسية ما هي إلاّ أداة بسيطة تساهم في الكشف عن أغوار الكاتب من خلال إبداعه، حيث لفت الأنظار إلى أهميّة الأدب وسطوته على الدّراسات النّفسية الحديثة، كونه عالم متكامل، يشمل الحياة بتفاصيلها وتناقضاتها، فلا عجب بعد ذلك إذا أفاد التّحليل النّفسي من الأدب.

4- تمكّن حسن المودن بفضل طريقته الجديدة في التّحليل أن يغوص في العديد من المتون الرّوائية العربية بغية استنطاق ما خُفي منها، معتمدا على مرجعية غنيّة في تفكيك الشّفرات الّتي تزخر بها النّصوص السّردية، جاعلا من التّحليل النّصي بؤرة للمقاربات السيكولوجية، الّتي تستعين بالمفاهيم الفرويدية، وهو ما يخالف ما كان مطروقا في النّقد العربي والّذي كان يُركزّ على الكاتب والقارئ والسّياق.